العمران بمدينة تيهرت الرستمية (160-296هـ/ 777-909م) -من خلال المصادر التاريخية والجغرافية-

أ.ة.جلجال فاطمة
جامعة تلمسان

تمهيد

العاصمة الرستمية، مدينة يكاد يقتصر وجودها بين دفتي المصادر التاريخية والجغرافية التي نجح أصحابها وبجدارة في تصويرها كحاضرة من أهم حواضر المغرب الأوسط، فقد أولى هؤلاء عناية خاصة لوصف مدنيتها وعمرانها، وراحوا يدونون أخبارها في مؤلفاتهم التاريخية والجغرافية على حد سواء، ليكون لهم بذلك فصل السبق في التعريف بتيهرت، وإليهم يرجع الفضل في معرفة مدى الرقي والازدهار الذي بلغته في عهد بني رستم، وهو الأمر الذي يحتم علينا ضرورة الإطلاع على تلك المصادر، بغية التعرف على موقعها من جهة، والوقوف على تخطيطها وترتيب عمائرها من جهة ثانية.

1. أصل التسمية

قبل التطرق إلى أصل التسمية لابد من الوقوف على طريقة كتابتها، فتباين المصادر في رسم حروفها قد يجر بدوره إلى اختلاف آخر في طريقة نطقها، الأمر الذي قد يؤدي في نهاية المطاف إلى معنى غير المعنى الذي أريد لها، وهنا نجد أنفسنا أمام فرقتين من المؤخين، كتبتها الأولى تاهرت بفتح التاء المثناة من فوق وألف وهاء وسكون الراء المهملة وفي

آخرها تاء ثانية[1]،وكتبتها الثانية تهرت بكسر التاء بعدها ياء فراء ساكنة، وهو ما ذهب إليه جل المؤرخين المغاربة، أمثال الرقيق القيرواني، وابن عذارى المراكشي، وابن سعيد المغربي[2]، وقد جعل أبو الفداء في تقويمه للبلدان الصواب في النطق المغاربي للكلمة واستبعد ما عداها في قوله: "وفي خط ابن سعيد عوض الألف ياءا مثناة من التحت، وهو الأصح عندي لأن ابن سعيد مغربي فاضل"[3]، وأما كتابتها تاهرت بألف، فكان من طرف المؤرخين والجغرافيين العرب كنتيجة حتمية تسبب بها النطق الخاطئ للحرف البربري، فتداولوها بينهم تاهرت بدلا من تهرت ونسخوها كذلك، ثم نقلها المتأخر منهم عن المتقدم حتى شاع استعمالها أكثر من لفظة تهرت في معظم الأحيان[4].

وتعود الكلمة بجذورها إلى اللغة البربرية[5]، ومايزال الجدل قائما حول المعنى الذي يقابلها في اللغة العربية، غير أن أكثر التفسيرات شيوعا هو اللبؤة[6]، ويستند أصحاب هذا الرأي إلى الرواية التي ساقتها لنا بعض المصادر التاريخية لا سيما الإباضية منها، والتي مفادها أن المدينة "كانت قبل ذلك غياضا عامرة بالوحوش والسباع والهوام، فلما اتفقوا على عمارتها أمروا مناديا ينادي إلى من بها من الوحوش والسباع: أن اخرجوا فان أردنا عمارة هذه الأرض، وأجلوا لها ثلاثة أيام"[7]، وتضيف الرواية نفسها "أنهم رأوا بها وحشا تحمل أولادها في أفواهها خارجة منها فكان ذلك مما رغبهم فيها وزادهم بصيرة في عمارتها وإنشائها"[8]، وبغض النظر عن الطابع الأسطوري الذي يقترن بهذه الرواية، فإنها توحي بأن الموقع الذي أنشأت عليه المدينة كان ملجأ لدواب غير مستأنسة، وربما ما ساقة لنا البكري يدعم هذه الفكرة عندما يقول: "فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة من أسد ظهر

في الشعراء، فأخذ حيا وأتي به إلى الموضع الذي صلوا فيه وقتل هناك"[9]، وقد تكون رواية البكري أقرب للواقع من سابقتها، إذا ما اعتبرنا أن البربر قرنوا ذلك الحادث بتسمية المدينة، وإذا ما سلمنا بأن كلمة تهرت البربرية هي اللبؤة في اللغة العربية، فإن الأصل في تسمية المدينة يرتبط ارتباطا وثيقا بخصوصية الموقع الذي أنشأت عليه.

وفي ذات المضمار تصادفنا دراسة استشراقية اهتمت بدراسة أسماء المدن الجزائرية، والتي اعتبرت أن جل الأماكن في الجزائر استمدت تسميتها من أسماء لحيوانات،وبتعدد اللهجات البربرية تعددت معها الاشتقاقات فكلمة "أر" (AR) مثلا،هي أصل لكلمة واحدة كتبت بطريقتين، الأولى "أر" (ar) وجمعها "أيرن" (iren)، والثانية "أيرد" (aired) وجمعها "أيرادن" (airaden)، وكلاهما تعني الأسد، وأما مؤنثهما فواحد هو "تيارات"(tiarat) أو "تاهارات" (tahart)، والتي تعنى اللبؤة[10].

في حين تذهب غيرها من الدراسات، إلى أن الأصل في الاشتقاق كان من كلمة "إهر"(eher)،ومعناها سد الفتحة،وتاهورت (Tahort)هي القطعة التي تسد بها هذه الفتحة، على أن تكون متحركة تسمح بالدخول والخروج عبرها، وتجعل أخرى أصلها في كلمة طهر، واستنادا عليه يصبح معنى تهرت الطاهرة[11].

وعلى صعيد آخر، فإن المحطة والإقامة هما التفسيران اللذان تبناهما كل من المؤرخان الفرنسيان Marc Carthy،

وErnest Mercier، وعلى عكس ما قد يتبار إلى الذهن للوهلة الأولى، فإن هذين الرأين يلتقيان أكثر مما يفترقان، فالمدينة أنشئت على مبدأ إقامة محطة سياسية وإدارية، ثم أصبحت هذه المحطة نفسها مركزا لإقامة دائمة، وهو المعنى الذي فرض واقعا جديدا للاستقرار في منطقة كان جل سكانها من الرحل الذيين يرتادون محطات متتالية

قصد إقامة مؤقتة[12]، ناهيك عن أننا لا نكاد نجد فرقا جليا بين المعنيين، فهما وجهان لعملة واحدة فلا محطة إلا للاقامة ولا إقامة إلا بالمحطة[13]، ومرة أخرى يرتبط هذا التفسير بخصوصية الموقع الذي أراده مؤسسوه أن يكون محطة لإقامة دائمة،ولاشك بأن هذه التسمية اقترنت بالمدينة منذ إنشائها،الأمر الذي يجعلنا نميل إلى القول بهذا الرأي دون غيره.

ومهما يكن من أمر، فإن تيهرت وبإجماع جل المؤرخين تسمية لمدينتين كبيرتين ومتقابلتين في المغرب الأوسط، إحداهما قديمة أزلية والأخرى محدثة[14]، الأمر الذي حتم استحداث صفات جديدة ارتبطت بكلتيهما قصد التفريق بينها، فنجد تارة تيهرت الجديدة والحديثة أو المحدثة، بالمقابل هناك تيهرت القديمة، وتارة أخرى ترد تيهرت السفلى وتقابلها تيهرت العليا، وفي هذا الصدد يقول البكري: "أنهم لما أرادوا بناء تاهرت، كانوا يبنون النهار، فإذاجن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهي الحديثة"[15]،وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن تيهرت بني رستم هي الحديثة والسفلى من بينهما.

وإن كانت هذه الصفات قد دعت إليها ضرورة التفريق بين المدينتين، فلتيهرت الحديثة تسميات أخرى اختصت بها دونما نظيرتها ففي الرواية الإباضية: "ثم أن تاهرت كانت حرزا وحصنا لجماعة المسلمين، وسميت بأم العسكر،وعسكر المبارك"[16]، وعند البكري: "سمي الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم"[17]، وتستوقفنا هذه التسمية لما لها من مدلول واسع، فالعسكر في اللغة العربية هو الجيش، والموضع منه معسكر[18]، وهو ما يتوافق إلى حد بعيد مع معنى المحطة السالف الذكر من جهة، ويضفي خصوصية على موقع المدينة والدور السياسي المنوط به من جهة ثانية.

تصافنا تسمية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها يسوقها لنا البكري مع تفسير لمعناها فيقول: "ونزل عبد الرحمن موضعا مربعا لا شعراء فيه، فقال البربر نزل تاقدمت تفسيره الدف، شبهوه بالدف لتربيعه"[19]، فتاقدمت إذن إحدى تسميات المدينة التي تعكس بدورها ميزة اقترنت بموقعها. وتبقى تلك التسميات على اختلاف معانيها وتعدد اشتقاقاتها، مهمة قد تساهم في كشف النقاب عن أسرار المدينة المندثرة، لا سيما فيما يتعلق بخصوصية موقعها.

2. خصائص الموقع الذي أنشأت عليه المدينة:

لا يختلف اثنان في أن اختيار موقع تهرت بالذات دون سائر المواقع ببلاد المغرب الأوسط، كان وليد ظروف سياسية معينة واجهت عبد الرحمن بن رستم والجماعة الاباضية، وحتمت عليهم اختيار موقع ذو حصانة عالية وخصائص مميزة، فرضت نفسها واقترنت بتأسيس حاضرة إباضية[20]، ولكن الذي قد يغيب عنا، أن هذا الأخير ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير عندما فكر في بناء حاضرة مزدهرة، ووجد أن الحصانة الأمنية وحدها لن تكون كفيلة بتحقيق ذلك، ومن ثمة قرن منعة مدينته بازدهارها، وأدرك أن السبيل إلى تحقيق ذلك يتطلب خبرة الخبراء "فاختاروا إذ ذاك من أهل العلم والخبرة بالأرض، جماعة ليرتادوا مكانا جيد الهواء، كثير المياه، خصب الأرض، قابلا للعمارة، مأمونا من العدو كما طلبوا، فطافوا أقطار تلك الجهات إلى أن عثروا على المكان الذي بنيت فيه" [21]. فكان هذا الأخير كما أرادوه يجمع بين الشرطين، وهو ما سنحاول التطرق إليه بشيء من التفصيل ما أمكننا ذلك:

أ. الخصائص الأمنية

أقدم البربر في المغرب الأوسط على خطوة قد تكون الأصعب من نوعها على مر تاريخهم عندما "ائتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي إمارتهم"[22]، وعقدوا العزم على ذلك وهم مدركون تمام الإدراك أن مثل هذا القرار سيجر معه ولا بد أعداءا يتربصون بها، ومن الحكمة بمكان إحاطها بدرع أمني يمنعهم إذا ما بادروا، ويقيها إذا ما هاجموا، فعمدوا إلى جعل هذا الأخير موكنا من شقين أولهما الطبيعة التضاريسية، وثانيهما على التحالفات القبلية:

أ.1. الطبيعية التضاريسية

لعل أول ما يشدنا انتباهنا حول موقع تيهرت أنها تتوسط المغرب الإسلامي، فلا هي في أقصى شرقه، ولا هي إلى أقصى غربه، وفي الوقت نفسه تتوسط ما جاورها من حواضره، فالمسافة بينها وبين قيروان الأغالبة ما يقارب 32 مرحلة (من القيروان إلى سطيف 12 مرحلة، ومن سطيف إلى تيهرت 20)، وبينها وبين فاس حيث الأدارسة 50 مرحلة، ومنها إلى بني مدرار أصحاب سلجماسة نحو 50 مرحلة[23]، وبذلك فهي تقع في منطقة داخلية، هذه الميزة التي تعني قبل كل شيء البعد عن بؤرة التوتر السياسي في المشرق الإسلامي، مما يمنح الجماعة الإباضية فترة استرخاء وراحة عسكرية، تمكنها من إعادة بناء قوتها[24] لا سيما بعد أن باءت محاولاتهم السابقة لانشاء حاضرة إباضية بالفشل في كل طرابلس، والقيروان، وطبنة، لقربها من الشرق وسهولة المواصلات في هذه النواحي[25]. وعلى صعيد آخر، فموقعها "فيما بين الريف والصحراء"[26]، يجعلها بعيدة عن الخطر البيزنطي القادم من الساحل الشمالي[27]، ويسهل بسط نفوذها وسيطرتها على القبائل البدوية الصحراوية المتاخمة لها جنوبا.[28]

ولم تقتصر المنعة الأمنية على بعد المسافة وحسب، بل إن تمركزها "بين جبال وأودية"[29]، جعل الوصول إليه شاق صعب المسلك، ففي السفح القبلي[30] لأحد هذه الجبال تربض المدينة محتمية بجدار طبيعي يصعب اقتحامه اختلفت المصادر في تحديد تسميته بالضبط، فورد مرة جزول[31]، ومرة كزول[32] وتارة قرقل[33]، وأخرى قزول[34]، ويعرفه اليعقوبي على أنه: "جبل متصل بالسوس، يسميه أهل السوس درن، ويسمى بتاهرت جزول، ويسمى بالزاب أوراس"[35]، فجزول وحسب تسمية التيهرتيين، عزز أمن المدينة وكان حصنها الحصين ضد هجمات أعدائها، وهو الجبل نفسه الذي اعتصموا فيه لأول أمرهم بعد قدومهم من القيروان واختبروا حصانته عن كثب، فاهتدوا بذلك الى أنه أفضل بقعة حصينة يمكن لهم الاستقرار بها فيما بعد.[36]

أ.2. التحالفات القبلية:

حول جبل جزول انتشرت قبائل بربرية شديدة الصلة بالمذهب الإباضي على رأسها لماية[37]، "وكان من لماية هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة، وكانوا ضواغن هناك على وادي ميناس"[38]، وأصبحت بذلك تيهرت تتوسط بلاد البربر على حد تعبير جورج مارسيه[39] "فبقبليها: لواطة وهوارة في قرارات، وبغربيها: زواغة، وبجوفيها: مطماطة وزناتة ومكناسة"[40]، وكون هذا الموقع كان قبل ذلك "ملكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة، اتفق معهم ابن رستم على خراج يؤدونه للأسواق مقابل أن يبيحوا لهم بناء المساكن"[41]، فقد استطاع أن يبعد فرضية الطمع في السلطة والسعي إليها من طرفهم، وعلى صعيد آخر فإن بناء المدينة في منخفض من جبل له صبغته الخاصة، لما تولده من شعور بالأمن والاستقرار الذي

يكفل بدوره وحدة المجتمع الجديد، ورغبته في التعايش بين البدو الرحل وسكان المدينة[42].

ب. الخصائص الحضارية

بلغت تيهرت في عهد بني رستم من الحضارة مبلغا عظيما، صوره لنا اليعقوبي في قوله: "المدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر"[43]، ولابد أنها وصلت إلى ذلك النوع من العظمة برقي تحضرها ومدنيتها، ورقت إليهما معا بفضل خصوصية موقعها الذي هيأها لذلك، فهو صالح للزراعة، قابل للتجارة:

ب.1. قابلية الزراعة

لقد كان قرار عبد الرحمن بن رستم المتعلق ببناء مدينة جديدة بدلا من القديمة موضع جدل بين المؤرخين، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت تقع "على قنة جبل ليس بالعالي"[44] يتميز بحصانته، و"عليها سور"[45]، يعزز أمنها، فضلا عن أنها كانت هي نفسها "حصنا لبرقجانة"[46]. وقد نسلم أن اختيار المدينة القديمة لتكون مركزا للحاضرة الإباضية، أمر لم يلق ترحيبا واستحسانا من لدن أهلها[47]، وقد نميل إلى التصديق بأن ابن رستم كان يهدف الى المزيد من النفوذ والاعتبار الشخصي بتأسيس مدينته في موقع بكر أملا في تخليد ذكره، غير أن الواقع العملي غير تلك المفاهيم إلى ما هو أكثر موضوعية[48]، فموقع تيهرت الحديثة كان "غيضة بين ثلاثة أنهار"[49]، في الوقت الذي كانت فيه المدينة البيزنطية لا تتلقى الري الا من واد صغير مؤقت تمده عين الطلبة بالماء[50].

وإن كان بناة المدينة البيزنطية قد راعوا علوها عن الأرض بـ (1050م) بهدف تحصينها، فان بناة المدينة الرستمية اختاروا موضعا لا يتجاوز علوه (820م)[51]، بل و"اختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون

بالقبلة، ويمر بها وبالبطحاء إلى أن يصب في وادي شلف"[52]، وهو طابع تقدمي في إنشاء المدن الإسلامية على خلاف نظيرتها الرومانية، فالموقع المنخفض المحاط بالمياه يسهل عملية التحكم في استغلالها[53]، واستنادا على هذا المبدأ أصبحت تيهرت مدينة "قد أحدق بها الأنهار"[54] من كل جوانبها، ففي قبيلها نهر مينه وفي شرقيها نهر تاتش الذي يجري من تلك العيون المجتمعة[55]، كما اقترنت بهذه ميزة ميزتان لا تقلان عنها أهمية، أولها خصوبة الأرض التي توفرها طبيعة تلول منداس، الذي انشأت عليه المدينة[56]، وثانيهما جودة مناخها "فهي شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج"[57]، فلم يشهد أن أجدب زرعها قط إلا ما أصابه ريح أو برد[58]،فأصبحت تيهرت بفضل هذه العومل الثلاث (الماءالوفير،المناخ الجيد،والأرض الخصبة)،"بقعة حسنة"[59]،كان لها بالغ الأثر في رخاء المدينة الاقتصادي وازدهار منتوجها الزراعي، فالتفت بها الاشجار[60]، وتنوعت بها الثمار[61]، حتى سميت ببلخ المغرب[62].

ب.2. قابلية التجارة

بفضل موقعها المشرف على الصحراء، جمعت تيهرت بين خصوصية السهول الزراعية وطبيعة الصحاري الرعوية، وعرفت إلى جانب الزراعة تربية المواشي فكان بها "من نتاج البراذين والخيل كل شيء حسن، وبها البقر والغنم كثير جدا"[63]، وهو ماجعل منها مقصدا للقبائل المنتجعة التي نشأت بينها وبين سكان المدينة الجديدة روابط تجارية أنعشت أسواقها المحلية[64]، كما ساعدها قربها من تقاطع الطرق التي تسلكها القوافل التجارية ذهابا وإيابا على ازدهار تجارتها، خاصة إذا ما تعلق الأمر بنظام التجارة البحرية الذي سنه الرستميون، وقوام هذا الأخير جعل الحاضرة داخل البلد، والتحكم في المراكز التجارية الساحلية[65].

3. تنظيمها العمراني

لقد كان لمدينة تهرت تنظيم معماري وصفه المقديسي بقوله: "محكم الرصف عجيب الوصف"[66]، غير أن هذا التنظيم لابد وأنه مر بعدة مراحل ليبلغ مبلغ هذا الوصف، خاصة وأنه ارتبط ارتباطا وثيقا والظروف المحيطة بنشأة المدينة أولا، وتطورها لاحقا:

أ. تهيئة الموقع

يذهب بعض المؤرخين إلى أن تهرت بنيت على أنقاض موقع قديم استحدثه عبد الرحمن بن رستم[67] والواقع أن هذا الأخير كان وباجماع جل المصادرغيضة[68]، ووردت أحيانا أخرى غياطيل[69]، وكلاهما واحد، فالغيضة هي مغيض الماء يجتمع فيتنبت فيه الشجر، والغياض الشجر الملتف[70]، وأما الغيطل هو الشجر الكثير الملتف[71]، وفي ذلك دليل كاف على أن الموقع لم يكن آهلا من قبل، بل وتذهب الإباضية منها إلى أبعد من ذلك فتحدثنا باسهاب عن تهيئة الموقع ليصبح صالحا للعمارة والانشاء عليه، وقد تطلب ذلك مرحلتين عمدوا في الأولى منهما إلى تلك الغياض ف "أطلقو فيها النيران، وأحرقت النيران ما عليها من أشجار"[72]، وتعهدوا في الثانية استئصال جذورها المتبقية، "ودحوها فغسلوها فصارو يدفنون الحيس[73]تحت أصول تلك الأشجار، فلما جنهم الليل طرقت الخنازير تلك الأشجار، فصاروا يحفرونها حتى أتت على آخرها حيث شمت ذلك الحيس، فلما أصبحو وجدوها كلها مقتلعة على وجه الأرض"[74] وبذلك تم تهيئة الموقع وإصلاح أرضيته، ليصبح جاهزا للبناء والعمارة، قبل الشروع في تخطيط المدينة ثم عمارتها[75].

ب. تخطيبط المدينة

فور الانتهاء من عملية إصلاح الموقع وتهيئته شرع في تخطيط المدينة، إلا أن هذ التخطيط لا يمكن أن يكون على الأرجح تخطيطا نهائيا وضع منذ الوهلة الأولى، وإنما عرف تعديلات متتالية ليتوافق والظروف التي مرت بها المدينة، ومست جانبها المعماري كغيره من الجوانب الأخرى، ولابراز مختلف التطورات التي شهدتها المدينة في تنظيمها المعماري، ارتأينا أن نقسمها إلى ثلاث مراحل كبرى: التخطيط الأولي، التطور العمراني، والتضخم المعماري:

ب.1. التخطيط الأولي

يرتكز تخطيط المدينة الإسلامية، على نهج محدد وقاعدة ثابتة تكاد أن تكون واحدة، قوامها جعل المسجد الجامع في مركزها إلى جانبه دار الإمارة، ثم الأسواق والمساكن، يحاط الجميع بسور تتخلله أبواب للدخول والخروج عبرها، وتعلوه أبراج للمراقبة[76]، وبالمقابل فموضع تهرت وحسب الرواية الإباضية لما أصبح صالحا للعمارة "قصدوا إلى اختيار محل ليؤسسوا فيه المسجد الجامع قبل كل شيء، فانتخبوا أربعة أماكن، ورموا القرعة عليها، فجاءت على المكان الذي اختطوه لصلاتهم أيام إقامتهم في تنقية الأشجار، فشرعوا في تأسيسها واختطوها بيوتا، وقصورا، وأسواقا، وحمامات، ومساجد، وفنادق، يحيط بالكل سور محكم"[77]، وكون الأماكن الأربعة التي تم عليها الإقتراع مجهولة لدينا، لا يمكننا الجزم بأي حال من الأحوال من أنه استبعد في التخطيط الأولي قاعدة توسط المسجد الجامع للمدينة، ومن جهة ثانية فإن في عبارة " فشرعوا في تأسيسها واختطوها "، بعد الفراغ من تحديد موضع هذا الأخير، ينم على التوسع الذي أريد له أن

يكون حول مركز المدينة، ووهو مايجيز لنا أن القول أن امتدادها سيتوقف على اختيار مركزها أولا.

أما عن دار الإمارة، فتواجهنا روايتان متناقضان أولاهما عند الدرجيني وثانيتهما عند ابن الصغير، فأما الأولى فتسوق لنا خبر وصول رسل البصرة إلى المدينة عندما: "جعلوا يسألون عن دار الامارة"[78]، وتضيف نفس الرواية: "فلما وصلوا الدار"[79]، كتأكيد على أن الوفد قد وجد الدار فعلا، في حين جاء في الثانية أن الإمام الأول عبد الرحمن بن رستم "شمر مئزره وجلس في المسجد للأرملة والضعيف"[80]، بل ويصف وصول نفس الوفد الذي ذكره الدرجيني، لكنه يشير إلى دار الإمام نفسه لا إلى دار الإمارة، ويذكر أن الإمام لما أراد أن يجمعهم وأعيان المدينة قال لهم: "نخرج إلى المسجد الجامع فنصلي بالناس ونعلمهم بما جئتم به"[81]، ولكون رواية ابن الصغير معاصرة لتلك الأحداث أو على الأقل للمحدثيين بها فهي أرجح من سابقتها، وهو ما يجعلنا نرجح بأن المسجد الجامع للمدينة، هو الذي كفل مهمتي الصلاة والإمارة معا، ولم يخصص لهذه الأخيرة دار خاصة بذلك حتى في الفترات الاحقة لتأسيس المدينة، فنفس الرسل وفي وفدتهم الثانية بزمن "اجتمعوا والناس في المسجد بعد الصلاة"[82].

ونفتقر إلى ما يشير إلى وجود الأسواق، والفنادق، والحمامات في هذه المرحلة المبكرة، فكل ما ورد إلينا أنهم "أخذوا في إنشائها وعمارتها فجعلوها ديارا وقصورا"[83]، وقد وردت عند ابن عذارى مساكنا[84]، دون التفصيل في أنواعها، ومن المستبعد أن تكون القصور قد شيدت في هذه المرحلة، فامامهم عبد الرحمن بن رستم نفسه، كان يسكن دارا بسيطة يصلحها بنفسه وليس بها من الأثاث إلا أبسطه[85]، وإن كان هذا حال الراعي فمابالك بحال الرعية، ومن جهة أخرى فإن

قبوله بالمساعدات المالية التي قدم بها وفد البصرة، وجعل ثلثها في الفقراء، ينمي عن المستوى المعيشي في بداية التأسيس، وأغلب الظن أنهم سكنوا الدور البسيطة دون القصور الفخمة، والأرجح أنه رافق تخطيط تلك الدور دروب تنظم توزيعها، فقد نسب عثمان الكعاك للمدينة أربعة دروب كبرى هي: درب المعصومة، ودرب حارة الفقير، ودرب البساتين، ودرب مجانة[86]. أما عن إحاطها بسور تتخلله أبواب فنجده جليا واضحا عند مؤرخهم ابن الصغير عندما يصف لنا قدوم وفد البصر في بعثته الأولى، في قوله: "فأناخو جمالهم ووضعوا أحمالهم وتقدموا مع القادمين معهم حتى دخلوا من باب الصفا"[87]، وبالرغم من أنه يكتفي بذكر باب الصفا دون غيره، إلا أن في ذلك دليل كاف على إحاطة المدينة بسور، فضلا عن إشارة ضمنية إلى وجود أبواب أخرى بتسميات مختلفة، ويذهب صاحب الاستبصار إلى أن سور تهرت بني من الحجارة[88] في حين يرجح جودت عبد الكريم يوسف، إلى أن هذا الأخير ربما قد قد يكون بني بلبن وطين تأثرا بالفن المعماري القروي، لأن سور مدينة القيروان كان من لبن وطين، ثم يضيف:"ويمكن أن يكون هذا أمرا مقبولا مادام الرستميون انتهجوا سياسة المسالمة وحسن الجوار، وأهملوا الناحية العسكرية، ثم جعلوا تاهرت مركزا تجاريا مفتوحا للجميع وبذلك لم يكونوا بحاجة إلى تلك التحصينات كبناء سور وقصبة من الحجر."[89]

ومهما يكن من أمر، فسور المدينة اختط فعلا في هذه المرحلة، وفتحت به أبواب أربعة هي: باب الصفا[90]، باب الأندلس، باب المطاحن، وباب المنازل[91]، إلا أنها وردت عند الحميري ثلاثة فقط، عندما جعل باب الصفا، وباب الأندلس، بابا واحدا[92]، وقد وزعت هذه الأبواب على الجوانب الأربعة للسور كمايلي:

- باب الصفا: يقع إلى الشرق المدينة[93].ويسمى الباب الشرقي[94]، فالصفا عند العرب،الربح الشرقية التي كثيرا ما تغنى بمدحها الشعراء،وربما كان هذا الأخير مخصصا للنزهة والرياضة البدنية وغيرها من وسائل الترفيه[95].
- باب الأندلس: يفتح في الجهة الشمالية للسور[96]، على الطريق المؤدي إلى مرسى فروخ[97]، حيث الاتجاه إلى البلاد الأندلس[98].
- باب المطاحن[99]: ويحتل الجدار الغربي للسور[100]، الذي يقع على نهر مينة حيث نصبت المطاحن[101].
- باب المنازل: ويقع في الجدار الجنوبي حيث الطريق إلى سلجماسة والسودان، ومنه يفد البدور القادمين إلى المدينة بقوافلهم[102].

واعتمادا على مواقع هذه الأبوب، يمكننا تحديد االشكل العام للمدينة، فباب الصفا وباب المطاحن، يشكلان معا طرفي النهج الطولي المستقيم،في حين يحتل كل من بابي الأندلس والمنازال طرفي محورالشارع العرضي، وهو ما يجعل تخطيط المدينة ذوشكل مستطيل على أغلب التقديرات[103].

ب.2. التطور العمراني

تنقلب الموازين وتتبدل الأمور بعد زيارة وفد البصرة إلى المدينة، وتعتبر هذه الفترة بالذات نقطة تحول كبرى في ازدهارها على جميع الأصعدة بما فيها العمران،ولم يكن ذلك ليتحقق لبني رستم، لولا السياسة الحكيمة التي انتهجها الامام عبد الرحمن حين جعل ثلث تلك الأموال في الكراع، وثلثا في السلاح، وثلثا أخيرا في فقراء المدينة وضعفاءها[104]، وهو الأمر الذي انعكس على رخاء المدينة الاقتصادي من جهة، واستقرارها الأمني من جهة ثانية، ونتج عنهما معا تقدما عمرانيا أتى

على تغيير الصورة الأولى التي كانت عليها المدينة، وهذا ما يصوره لنا ابن الصغير في قوله: "وقوي الضعيف،وانتعش الفقير، وحسنت أحوالهم، وخافهم جميع من اتصل به خبرهم، وأمنوا ممن كان يغزوهم من عدوهم، ورأوا أنهم قادرون على غيرهم ومن كانوا يخافون أن يغزوهم، ثم شرعوا في العمارة والبناء، وإحياء الأموات، وغرس البساتين، وإجراء الأنهر، واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك، واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها"[105]، وفي النص إشارة واضحة إلى التوسع الذي شهدته المدينة، مما غير في هيكلة تنظيمها المعماري الذي كانت عليه في الفترة السابقة، ونقف فيما يلي على بعض من تلك التغيرات:

- **التشييد والبناء**

تبدل الطابع العمراني للمدينة في هذه الفترة، فالوفد الذي زارها قبل زمن يسير[106]، انبهر لما وجد الأمور قد تبدلت، وأحوال المدينة والأشياء قد حالت، بل إن صاحبهم الذي قصدوه سابقا في داره، قصدوه هذه المرة في قصره[107]، وفي هذه المرحلة على الأرجح تم اكتمال عمران المدينة لما توفر من أسباب لذلك، فبنيت الأسواق،والحمامات، والخانات، والمساجد وغيرها، وبالرغم من أن هذه الفترة ستمتد إلى الإمام الثاني عبد الوهاب، إلا أننا لا نلمس في كتاب ابن الصغير، ما يشير إلى نظام محدد لتوزيع عمائرها، ولم نقف على طريقة تنظيمها، فيماخلا إشارة إلى تعدد المساجد والدور بتعدد المذاهب الوافدة على المدينة، وقياسا على ذلك قد تكون نشأت في هذه الفترة أحياء جديدة لكل منها تنظيمها المعماري المستقل عن غيرها، خاصة وأن ابن الصغير يسمي لنا رحبة القرويين،ورحبة البصريين، رحبة الكوفيين وغيرها[108].

- **تنظيم الري وتوزيع المياه**

وصلنا عن اليعقوبي أن"شرب أهل تاهرت من أنهار وعيون، يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبل قبلي يقال له جزول"[109]، وأفادنا البكري أنه:"من تاتش شرب أهلها وبساتينها"[110]، كما سبق وأن أسلفنا أن تهرت ذات ثروة مائية، ساعدتها خصوصية موقعها المنخفضة على إيصال الماء إلى المدينة، والتحكم الجيد في توزيعه، ونص ابن الصغير الذي بين أيدينا يشير إلى إحياء الموات، وإجراء الأنهر، وذلك يسوقنا إلى التخمين بأن استصلاح الأراضي وغرس البساتين، رافقه تظيم محكم لعملية الري،منها ما خصص لسقي الأراضي فوجه نحو البساتين،ومنها ما خصص للشرب فوجه إلى الدور، ولقد وافتنا المصادر بشيء من ذلك فعند الادريسي[111]:"بمدينة تهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون، بها ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفواكه الحسنة"[112]، وعند أبي الفداء: "لأهلها مياه تخرق اكثر دورهم"[113]. وقد ظلت تهرت خلال هذه الفترة تنمو وتزدهر يوما بعد الآخر، سواء بين قدميتي وفد البصرة أو بعدهما[114]، إلا أن عمرنها قد يكون مال إلى الركود في عهد الامام اللاحق عبد الوهاب، بسبب الفتن المتتالية التي عرفتها المدينة، ليشهد إنطلاقة أخرى في عهد ابنه أفلح.

ب.3. التضخم المعماري

لقد بلغ ازدهار المدينة ذروته في عهد ثالث الأئمة الرستميين أفلح ابن عبد الوهاب، الذي أقام في الإمامة ما يقارب الخمسين عاما ليكون أكثر من عمر من الأسرة الرستمية، وانتقلت المدينة في عهده إلى مرحلة التضخم العمراني، وعرفت نشاطا معماريا كبيرا أتى على تغيير في تنظيمها المعماري السابق، فعمرت معه الدنيا، وانتشرت القبائل،

وعمرت العمائر، ولعل أبرز ما ميز هذه الفترة هو بناء القصور والضياع، حتى تنافس الناس في ذلك، بل وابتنوها خارج أسوار المدينة نفسها، فامتدت حاضرتهم وتوسعت، حتى ظهرت وحدات عمرانية جديدة، أصبحت تشكل وجها مختلفا عما كانت عليه سلفا، فبالاضافة إلى الأحياء الأصلية التي استوطنتها القبائل وشاركهم فيها بعض المهاجرين الأوائل، برز للوجود حي الأجناد الذي بناه المهاجرون القادمون من افريقة، وهو الذي أصبح في القرن الثالث سرة المدينة، وحي العدوة الذي كان بمحاذاة نهر مينة، وكان من بناء نفوسة، ثم منطقة القصور والضياع وهي في الضواحي القريبة من المدينة حيث الجنات والبساتين[115]، وقد تعزز تحصين المدينة في هذه الفترة أيضا على ما يبدو، عندما اتخذ أفلح بابا من حديد لمدينته، ولما ثم تولى الإمامة أبو بكر بن أفلح، ظلت المدينة زائدة في العمارة[116]، وربما كان ذلك آخر عهدها بتعديل في هيكلتها.

4. مرافقها المعمارية:

تنوعت المرافق المعمارية داخل الحاضرة الرستمية، بتنوع الدور المنوط بكل منها، فمنها ماهو عام يشترك فيه سكان المدينة جميعا، ومنها ماهو خاص يختلف باختلاف أفراد المجتمع وهي عموما كمايلي:

أ. المرافق العامة

ونقصد بها جميع المرافق التي يستعين بها سكان المدينة على قضاء حوائجهم اليومية في مختلف المجالات سواء كانت دينية أو دنيوية، وهي في تهرت خمسة مرافق أساسية:

أ.1. المرافق الدينية

وهي كل ما يتعلق بإقامة الشعائر الدينية بمختلف أنواعها، وهي قد أوردت المصادر نوعين:

أ.1.1. المساجد

عند نزول عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الإباضية موقع تيهرت الجديدة لأول أمرهم أدركتهم صلاة الجمعة، فعمدوا إلى مكان وأصلحوه لصلاتهم، وقد كان هذا الموضع هو الذي وقع عليه الاختيار ليكون المسجد الجامع للمدينة لاحقا، وعلى ما يبدو أن هذا الاختيار لم يكن بموافقة الجميع، بل تضاربت الآراء حول أربعة مواقع بما فيه الموضع الذي صلوا فيه، الأمر الذي حتم عليهم اللجوء إلى الإقتراع فوقع الاختيار على المكان المربع الشكل دون الثلاثة الأخرى، عندها شرعوا في انشاء المسجد وجعلوه مكونا من أربع بلاطات مستعملين في ذلك خشب الشعراء[117] المتوفر في المنطقة، ويبدو أن هذا الجامع لم يشهد أي توسعة خاصة وأنه بقي بهذا التخطيط إلى عهد البكري[118].

وتحجم المصادر عن وصف مسجد تيهرت إلا ما يشر إليه ابن الصغير محدثا عن الامام أبي اليقضان في قوله: "وكان إذا جلس في المسجد الجامع، جلس على وسادة من أدم مستقبلا الباب البحري، وله سارية يجلس إليها"[119]، ربما يشير ذلك إلى أن مدخل الجامع كان في جهته الشمالية، وربما جاز لنا أن نذهب أكثر من ذلك إذا ما قلنا أنه كان يحوي على أكثر من مدخل واحد، أما سقفه فقد حمل على مجموعة من السواري نجهل عددها.

وفيما عدا المسجد الجامع، فقد وجدت بتيهرت مساجد أخرى لا نعرف عددها على وجه الدقة، ولم نقف على تصنيف معين لها، وإذا افترضنا أن تسمية تلك المساجد إنما تعكس موقعها، فقد نستطيع إحصاء بعض منها اعتمادا على ما ساقة ابن الصغير الذي يسمي مسجد الرهادنة، ويشير قبل ذلك إلى مساجد الكوفيين، والبصريين، والقرويين، وكلها تعكس وبوضوح تعدد المساجد بتعدد الفرق المذهبية

بالمدينة، وربما وجدت كل منها في الحي الخاص بكل فرقة، أما مصلى الجنائز فيخبرنا ذات المؤرخ، أنه رأى فيه أبو اليقظان يوما[120]، فموقعه ووظيفته جلية من اسمه، وهكذا يصبح عددها خمسة على الأقل دون احتساب المسجد الجامع، وهو ما يدل من جهة أخرى على كثرة سكان المدينة، وتعدد توجهاتهم المذهبية.

أ.2.1. الكنيسة

ترد كلمة كنيسة في كتاب ابن الصغير،على أنها أعلى موضع في المدينة[121]، وهي دار لاثنين من أوسع الناس نفوذا هما أحمد ومحمد ابنا ديوس[122]، ونعدم الوصول إلى أي معلومات أخرى عنها سواء عنده أو عند غيره من المؤرخيين ما خلا ذلك.

أ.2. المرافق التجارية

أوردت المصادر التاريخية عددا من المرافق التي يمكننا أن نصنفها كرافق تجارية تمثلت عموما في الأسواق، والحمامات، والخانات:

أ.1.2. الأسواق

إن موقع المدينة الذي فرض حركة تجارية جلبتها القبائل ذالمنتجعة، والقوافل المارة بالحاضرة، فرض إقامة أسواق أصبحت عامرة[123]، أنشئت بالقرب من المساجد[124]، إلا أننا نجهل عددها وحتى تسمياتها إذا ما استثنينا سوق ابن وردة مقدم العجم[125]، والأرجح أن عددها كان كبيرا ليتوافق والأحياء المنفصلة عن بعضها، وبما أن كل مجموعة شيدت مسجدا خاصا لحيها،قد تكون كذلك ابتنت سوقا خاصا بها[126] ويبدو أن الرستميين قد اهتموا بتنظيم أسواقهم فجعلوا لكل حرفة سوقا، ثم عينوا عليها المحتسبين،وربما كانت تنظم حسب أيام الأسبوع. فالمقديسي يشير إلى أن منها ما ينظم كل جمعة[127].

أ.2.2. الحمامات

إن الثروة المائية وحسن استغلالها، هيأ إقامة حمامات كثيرة بالحاضرة الرستمية، كان اسم اثنا عشر منها معروفا[128]، ويرجح الشيخ بكري بأن أماكنها كانت بالقرب من المساجد[129].

أ.3.2. الخانات

ارتبطت الخانات ارتباطا وثيقا بوفود القوافل التجارية إلى المدينة تهرت، وليست تسمية باب المنازل إلا دليل على وقوعها بالقرب منه، حيث كان التجار ينزلون للإقامة هناك[130].

أ.3. المرافق الإدارية والسياسية

عمد الأئمة الرستميين إلى إستحداث عدد من المؤسسات الإدارية قصد تنظيم أمور الدولة، وضمان السير الحسن لشؤونها، أتى على ذكرها ابن الصغير وهي:

أ.1.3. دار الضيافة:

يبدو أنه خصص لضيوف الإمام القادمين إلى الحاضرة تهرت دار خاصة لاستقبالهم وإقامتهم، كانت تسمى بدار الضيافة، نجد ذكرها عند مؤرخهم في قوله: "وأن ابا اليقظان لما استقام له ملكه، أتته وفود نفوسة من الجبل المعروف بجبل نفوسة ليقدم عليهم أميرا من أنفسهم فأنزلهم في دار الضيافة"[131]

أ.2.3. دار القضاء

خصص للقضاء دار خاصة بذلك كانت تعرف بدار القضاء، يجلسون بها للأحكام ويتحذون الكتاب، والأعوان،والقماطر،والخواتم[132]، وأشار ابن الصغير إلى ذلك عندما يحدثنا عن قدوم محكم الهواري، بطلب من الامام أفلح لتولي مهمة القضاء بالمدينة قائلا: "وأنزلوه بالدار

المعروفة بدار القضاء"[133]، وكانت هذه الأخيرة عبارة عن محلات مخصصة للفصل بين الخصومات إلا ما تعلق منها بالجرائم، فكان يعقد لها مجلس خاص يرأسه الإمام ممثلا في رئيس الدولة وبحضرة خاصة العلماء[134].

أ.3.3. بيت المال ودار الزكاة

أنشأت بتيهرت مؤسستان ماليتان للتحكم في أموال الدولة وصرفها في وجوهها، ونجد أول إشارة لكلتيهما في كتاب ابن الصغير منذ عهد الامام عبد الرحمن بن رستم، فساق لنا عن الأولى محدثا عن عبد الرحمن بن رستم: "بيوت أمواله ممتلأة"[135]، وحدثنا عن الثانية: "وأهل الصدقات على صدقاتهم يخرجون في أوان الطعام فيقبضون أعشارهم"[136]، ونفتقر إلى وجود تفاصيل أخرى عن المؤسسة الأولى عند ابن الصغير، ويرى ابراهيم بحاز أنه بيت واحد مركزي في العاصمة تيهرت، في حين تتوزع البقية على باقي مدن من الدولة الرستمية[137]، أما المؤسسة الثانية فيصفها، محدثنا عن أحد القضاة الذي قصدها بحثا عن زكرياء ابن الامام في شكوى جاءته فيه، بعدما بلغه أنه قصد هذه الدار، وقد كانت هذه الأخيرة واسعة تتكون من طابقين، وتحوي على عدد كبير من الغرف وهو ما يتضح جليا من قوله يتخلل البيوت بيتا بيتا، كما أنها تتسم بالسعة أيضا، لأن فالقاضي بحث فيها موضعا موضعا.[138]

أ.4. المرافق العسكرية

لقدكان للمنشآت العسكرية حضورها في العاصمة تيهرت، وهي في الغالب حصون بنيت في فترات لاحقة لتأسيس المدينة.

أ.1.4. الحصون

إنما شيدت هذه الأخيرة لما اقتضته الضرورة الحربية تبعا للاحوال في المدينة تيهرت حين حمي الوطيس ما بين حلفي العرب والجند، ونظيرتها العجم ونفوسة وكان الحصنين قريبين من بعضهما على بعد رمية سهم، إحداهما بتخطيط مستدير ولها أكثر من باب واحد تعلوها أبراج[193].

أ.2.4. القصبة

تكاد المصادرالتاريخية تجمع على وجود قصبة[140]، مشرفة على السوق في تيهرت تسمى المعصومة[141]، ويستوقفنا هنا رأي موسى لقبال حول معصومة الرستميين ما ملخصه، أن مؤرخهم ابن الصغير، والجغرافي اليعقوبي لم يشرا إلى وجود مثل هذه القصبة في المدينة، وهما المعاصران لفترة حكم الإمام أبي اليقظان، أزهى عصور المدينة، في الوقت الذي ذكر الأول قلاعا أخرى خارجها، واهتم الثاني بوصفها بعراق المغرب من فرط إعجابه بازدهارها، وبما أن هذه الفترة تلتها عهود من الفتن المتواصلة، فمن المستبعد أن تكون مثل تلك القصبة بنيت في عهد بني رستم، والأقرب إلى الظن أن بناء المعصومة تم في عهد الولاة الفاطميين، ثم يضيف " فرواية البكري عن شيخه الوراق (ق4هـ-10م)، لا يمكن حملها على عهد الامامة الرستمية، نظرا لانعدام المرجحات وسكوت المصادر المعاصرة، والأقرب إلى الرجحان حملها على عهد الفاطميين أو الزيريين." [142]، غير أن ما يشد انتباهنا على صعيد آخر،أن الحصون في تيهرت اقترن تشييدها بفترات الفتن والحروب، الأمر الذي يجعل الاستفسار قائما إلى أن يزيله بحث أثري يميط اللثام على حقيقة معصومة الرستميين.

أ.5. المرافق العلمية

ونقصد بها المكتبة الرستمية التي تشترك مع القصبة السالفة الذكر في تسمية المعصومة ربما لقربها منها[143] حسب بعض المؤخين أو لوجودها داخل القصبة نفسها حسب بعضهم الآخر[144]. ويستند أصحاب هذا الرأي الأخير إلى الرواية الإباضية التي تصف دخول أبي عبد الله الشيعي مدينة تيهرت على رأس الجيوش الفاطمية، والتي مفادها: "وذكروا أنه وجد بها صومعة مملوءة كتبا، فاستخرجها كلها واقتنى منها كل ما يصلح للملك، والحساب، وأضرم النار في بقيتها"[145]، ويقال أنها كانت تشمل نفائس الكتب والمخطوطات ما وصل عدده إلى ثلاث مئة ألف مجلد[146].

في حين يشكك موسى لقبال في وجود مكتبة خاصة بالرستميين في تيهرت، لنفس الأسباب التي سقناها سابقا حول رأيه في وجود القصبة، أو بمعنى آخر يستبعد وجود معصومة بالحاضرة الرستمية سواء كانت مكتبة أو قصبة، ويرى من جهة أخرى أن المصادر الإباضية قد بالغت في وصفها وفي ذكر عدد أسفارها، وينفي تهمة الحرق ان حدثت فعلا عن الداعية الشيعي، وينسبها إلى في عهد الفتن التي عرفتها المدينة وتسببت فيها القبائل المجاورة وكذا سياسة الأئمة أنفسهم،ثم التناقضات داخل البيت الرستمي[147].

المرافق الخاصة

ونقصد بها المساكن المتواجدة في المدينة بمختلف أنواعها وعموما نميز في تيهرت نوعين:

ب.1. الدور

معلوماتنا المستقاة من المصادر التاريخية والجغرافية عن الدور بتيهرت ضحلة للغاية، وأغلب الظن أنها كانت بسيطة بساطة دار إمامهم عبد

الرحمن على الأقل في بدايات تأسيس الحاضرة،ربطت وحدات جدرانها بملاط من الطين، وحيطانها خالية من التنميق والزخرفة[148]، وربما اقترن ذلك بالتقشف والزهد الذي حرص عليه الأئمة الرستميين تماشيا وبساطة الإسلام وصفاته،وهو ما تعبر عنه عقيدتهم الإباضية[149] غير أن ملكية هذه الدرور لكوفيين وبصريين وقرويين وغيرهم[150] من الوافدين على المدينة، قد يكون أضفى عليها طابعا خاصا يميز كل منها عن نظيرتها، ويجعلنا نخمن باختلاف الطرز المعمارية تبعا والانتماءات العرقية المختلفة لمالكيها.

ب.2. القصور

شيدت القصور بالمدينة منذ عهد الامام الأول عبد الرحمن، أيام تبحر العمران وثراء الرعية، وزاد عددها بإمامة أفلح فلم تصبح حكرا على الامام وحسب، بل طالت عمارتها أهل الثراء في المجتمع التهرتي، وأدى بهم التنافس إلى بناءها خارج المدينة ذاتها وكانت جلها ملكا للعجم من سكانها، ومن تلك الأسماء التي أوردها ابن الصغير ابان وحمويه وعبد الواحد، في عهد أفلح، ومحمد بن عرفة في عهد أبي بكر، وكانت هذه القصور تتسم بعلوها فجعلوا لها شرافات[151]، وكان للأمراء منهم قصور ومنتزهات في أملاكهم خارج تيهرت كانت تسمى بجنان الأمير[152]، ومما يؤسف له أنه لم يرد في كتاب ابن الصغير ولا غيره، تفاصيل أكثر عن تصميمها المعماري.

خلاصة

خلاصة قولنا، أن بنو رستم لما تطلعوا لتأسيس حاضرتهم الاباضية في المغرب الأوسط، أرادوها بحضارة ورقي المدنيات في عصرها، فسعوا إلى ذلك سعيه وراحوا يلتمسون السبل لتحقيق بغيتهم، فوجدوا رغبتهم تهدد أمنهم، وحرصهم الزائد على أمن جماعتهم يهدم طموحهم، فعمدوا إلى اختيار موقع يحفظ منعتهم، ويكون حصنهم ضد أعدائهم، وفي الوقت ذاته تكون خصائصه السبيل إلى ازدهار مدينتهم، ورقي حضارتهم، فكان في الاعتصام بالجبال والتحالفات القبيلة الأولى، وفي الربوض بين منابع المياه، ومسالك القوافل التجارية الثانية، فبنيت تهرت، وتبحر عمرانها، وتنوعت مرافقها، وكان لهم ما أرادوا من شأنها، بل وفتحت حاضرتهم مصراعيها للوفود من كل الأقطار، فتنوعت بها الأجناس، وصنعت بتعددها وحدات شتى مثلت المجتمع التهرتي، فانعكس ذلك على تنظيمها المعماري، واضطربت العلاقات فيما بينها، فولدت نماذج معمارية عكست صورة مدينتهم بدور وقصور أيام سلمها، وحصون وقلاع أيام حربها.

الهوامش:

1- عماد الدين اسماعيل بن محمد بن علي بن عمر، المعروف بأبي الفداء صاحب حماه، (ت 732هـ)، تقويم البلدان، دار صادر بيروت، ص: 138، وانظر أيضا: الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي، كتاب صبح الأعشى،ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1333هـ- 1915م، ص: 111، الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، تحقيق ج س كولان وإليفي بورفنسال، ج1، ط2، دار صادر بيروت، ص: 07.

2- ابراهيم بكير بحاز، الدولة الرستمية، (160-296هـ- 777-909م)، دراسة في الأوضاع الإقتصادية والحياة الفكرية، ط2، القرارة، الجزائر، 1993م، ص: 86.

3- أبو الفداء، مصدر سابق، ص: 138، انظر أيضا: القلقشندي، مصدر سابق، ص: 111.

4- canal (J), Tiaret monographie ancienne et moderne, bulletin de la societe de geographie et d'archeologie de la province d'Oran, Tome 20, 1900 p: 06.

5- ibid, p: 06.

6-محمد بن رمضان شاوش، الدر الوقاد من شعر بكر بن حمادالتاهرتي، ط1، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، 1966م، ص: 18.

7-أبو زكرياء يحي بن أبي زكرياء، كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م. ص: 81، وانظر أيضا: أبو العباس أحمد سعيد الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق الشيخ ابراهيم بن محمد الطلاوي، ج1، ط2، 2007م، ص:40، أبو العباس أحمد سعيد الشماخي، (ت 928هـ/ 1522م)، كتاب السير، الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس هجري/11م، تحقيق محمد حسن، المجلد 30، السلسلة 4، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، 1995م، ص: 43، سليمان بن عبد الله الباروني باشا، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، القسم الثالث، تحقيق أحمد كروم، عمر بازين، مصطفى ابن دريسو، تقديم ابراهيم بكير بحاز، واحمد بن سعود السيابي، ط3، طبع بدار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1423هـ 2002م، ص: 08.

8-أبو زكرياء يحي بن أبي زكرياء، مصدر سابق، ص: 81، وانظر أيضا: الدرجيني، مصدر سابق، ص: 40، الشماخي، مصدر سابق، ص: 43، 44، الباروني، مرجع سابق، ص: 08.

9-أبو عبيد البكري (ت 487هـ)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ص: 68.

10- Brahim Zerouki, l'imamat de Tahert, premier état musulman du maghreb (144 / 296 de l'hegri), Tome 1, histoire politico-socio-religieuse, publié avec la participation du C.N.R.S, edition l'Harmattan, Paris 1987, p: 28.

11- ibibd, p: 28

12- canal (J), op cit, p: 07

13- ابراهيم بكير بحاز، مرجع سابق، ص: 86.

14- أبو عبيد الله، محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي (ق 6هـ)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 142هـ- 2002م، ص: 275، أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات مكتبة دار الحياة، لبنان بيروت، 1992م، ص: 86، محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، لبنان، بيروت، 1884م، ص: 126، ياقوت الحموي، مصدر سابق ص: 07.

15- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 67.

16- أبو زكرياء يحي بن أبي زكرياء، مصدر سابق، ص: 84.

17- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 68.

18- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، ط1، دار المعارف القاهرة، ص: 2945.

19- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 68.

20- محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، (160-296هـ)، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1408هـ -1987م، ص: 95.

21- سليمان الباروني، مرجع سابق، ص: 07.

22- عبد الرحمن بن خلدون، (732- 808هـ-1332- 1407م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان،1431هـ- 2001م، ص: 159.

23- أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المعروف بالكرخي، مسالك الممالك، وهو معول عن كتب صور الأقاليم، للشيخ أبي يزيد أحمد بن سهل البلخي طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبع بريل، 1870م، ص: 46.

24- لخضرسيفر، التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي، ج1، الأمل للدراسات، ص: 40.

25- سليمان داود بن يوسف، مجهودات الدولة الرستمية في نشر الحضارة الإسلامية وتركيزها، محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، ورجلان 17-26 صفر 1397هـ- 06-15 فبراير 1977م، المجلد الأول، منشورات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1984م، ص: 82.

26- عبد الرحمن ابن خلدون، مصدر سابق، ص: 126.

27- لخضرسيفر، مرجع سابق، ص: 40.

28- ابراهيم بكير بحاز، مرجع سابق، ص: 89.

29- أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح، المعروف باليعقوبي، كتاب البلدان، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبع بريل، 1890م، ص: 140.

30- نفسه، ص: 140.

31- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 66.

32- عبد الرحمن ابن خلدون، مصدر سابق، ص: 159.

33- مؤلف مجهول،كاتب مراكشي من كتاب القرن 6هـ، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، طباعة دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ص: 178.

34- الحميري، مصدر سابق، ص: 126.

35- اليعقوبي، مصدر سابق، ص: 149.

36- سليمان داود بن يوسف، مرجع سابق، ص: 82.

37- محمد عيسى الحريري، مرجع سابق، ص: 86.

38- عبد الرحمن ابن خلدون، مصدر سابق، ص: 153، 154.

39- جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، مراجعة مصطفى ابو ضيف أحمد، مطبعة الانتصار لطباعة الأوفست، ص: 121.

40- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 67، انظر أيضا: الحميري، مصدر سابق، ص: 126.

41- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 68.

42- لبزيك دابروفسكي، تاهرت: ملاحظات حول تطور فن العمران الإسلامي بالمغرب الأوسط (القرن السابع-الحادي عشر)، محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، ورجلان 17-26 صفر 1397هـ- 06-15 فبراير 1977م، المجلد الرابع، منشورات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1984م، ص:298.

43- اليعقوبي، مصدر سابق، ص: 143.

44- الحميري، مصدر سابق، ص: 126.

45- نفسه، ص: 126.

46- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 67.

47- نفسه، ص: 67.

48- رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، العهد الاسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني،ج3، وزارة الثقافة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص: 78.

49- ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق، ص: 196.

50- رشيد بورويبة وآخرون، مرجع سابق، ص: 78.

51- لبزيك دابروفسكي، مرجع سابق، ص:298.

52- عبد الرحمن ابن خلدون، مصدر سابق، ص: 159.

53- لبزيك دابروفسكي، مرجع سابق، ص: 298.

54- المقديمي المعروف بالبشتاوي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة،1411هـ-1991م، ص: 228.

55- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 66، 67.

56- عبد الرحمن ابن خلدون، مصدر سابق، ص: 159.

57- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 67، انظر أيضا: ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق، ص: 196، الحميري، مصدر سابق، ص: 126.

58- اليعقوبي، مصدر سابق، ص: 140.
59- الإدريسي، مصدر سابق، ص: 256.
60- المقديمي، مصدر سابق، ص: 228.
61- المقديمي، مصدر سابق، ص: 228.
62- المقديمي، مصدر سابق، ص: 228.
63- الحميري، مصدر سابق، ص: 126.
64- جورج مارسيه، مرجع سابق ص: 127.
65- لبزيك دابروفسكي، مرجع سابق، ص: 296.
66- المقديمي، مصدر سابق، ص: 228.
67- ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق ص: 196.
68- أبو عبيد البكري، مصدر سابق ص: 68، انظر أيضا: أبو زكرياء، مصدر سابق، ص: 81.
69- الشماخي، مصدر سابق، ص: 43.
70- ابن منظور، مرجع سابق، ص: 3327.
71- الشماخي، مصدر سابق، ص: 43.
72- أبو زكريا، مصدر سابق، ص:81، انظر أيضا، الشماخي، مصدر سابق، ص: 44.
73- الحيس: الأقط يخلط بالتمر والسمن، انظر: ابن منظور، مرجع سابق، ص: 1069.
74- أبو زكريا، مصدر سابق، ص: 82، الشماخي، مصدر سابق، ص: 44.
75- بويحياوي عز الدين، معطيات جديدة حول تاهرت تاقدمت، الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية والاثرية، أدرار 05. 25 إلى 02.06. 1994، ورزارة الإتصال والثقافة، مديرية التراث الثقافي والفنون التقليدية، الجزائر، ص: 20.
76- محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ص:18.
77- سليمان الباروني، مرجع سابق، ص: 09، 10.
78- الدرجيني، مصدر سابق، ص: 43.
79- نفسه، ص: 43.
80- ابن الصغير،(ق3هـ)، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وابراهيم بحاز،2 eme semestre، المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص:28.
81- نفسه، ص: 30.
82- نفسه، ص: 34.
83- أبو زكريا، مصدر سابق، ص: 82، انظر أيضا: الدرجيني مصدر سابق، ص: 41، الشماخي، مصدر سابق، ص: 44.
84- ابن عذارى، مصدر سابق، ص: 196.
85- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 29.
86- عثمان الكعاك، موجز التاريخ العالم للجزائر من العصر الحجري إلى الإحتلال الفرنسي، تقديم ومراجعة أبو القاسم سعد الله وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص: 120.
87- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 29.
88- مؤلف مجهول، مصدر سابق، ص: 178.
89- جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص:34.
90- وردت في الأصل صبا، واعتمدنا صفا بدلا منها لأنها وردت عند ابن الصغير كذلك، وقد ذكرها الشيخ بكري صبا أيضا، انظر:
Chikh bekri, Le Royaume rostemide le premier etat Algerien, ENAG editions, Alger, 2005, p: 114
91- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، ص: 66.
92- الحميري، مصدر سابق، ص: 126.
93- رشيد بورويبة، الفن الرستمي بتاهرت وسدراتة، العدد 41، دار البعث، قسنطينة، 1397هـ-1977م، ص:184.
94-Chikh bekri,op cit , p: 114
95- محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ص:25.

96- رشيد بورويبة، الفن الرستمي، مرجع سابق، ص:184.

97- Chikh bekri,op cit , p: 114.

98- محمد رمضان شاوش، مرجع سابق، ص:25.

99- تجعله بعض المراجع في الجهة الجنوبية، غير أن أقرب الاحتمالات هو الجهة الغربية كون المطاحن وجدت على نهر مينة الموجود في الناحية الغربية، انظر: محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ص:25.

100- رشيد بورويبة، الفن الرستمي، مرجع سابق، ص: 184، انظر أيضا: Chikh bekri,op cit , p: 114

101- ibid, p: 114

102- ibid, p: 114

103- ليزيك دابروفسكي، مرجع سابق، ص: 299.

104- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 30.

105- نفسه، ص: 31.

106- يحدد ابن الصغير هذه الفترة بثلاث سنوات، غير أن إحسان عباس يجعله أمرا مستبعدا، ويشير الى ضرورة تصحيح الزمن بين القدمتين، انظر: ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 32، احسان عباس، المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين، محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، ورجلان 17-26 صفر 1397هـ- 06-15 فبراير 1977م، المجلد الأول، منشورات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1984م، ص: 125.

107- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 33.

108- نفسه، ص: 33.

109- اليعقوبي، مرجع سابق، ص: 149.

110- أبو عبيدالبكري، مصدر سابق، ص:67.

111- ينسب الأستاذ جودت عبد الكريم يوسف هذا الوصف إلى تهرت القديمة، أنظر: جودت عبد الكريم يوسف، مرجع سابق، ص:32.

112- الادريسي، مصدر سابق ص: 256.

113- أبو الفداء، مصدر سابق، ص: 124.

114- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 35.

115- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 53، 54، انظر أيضا: إحسان عباس، مرجع سابق، ص: 126.

116- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 53، 63.

117- هو الشجر الملتف، أو الارض ذات الشجر الكثيف، أنظر: ابن منظور، مرجع سابق، ص:2275.

118- أبو عبيدالبكري، مصدر سابق، ص:68، انظر أيضا: أبوزكرياء، مصدر سابق، ص:82، ابن عذارى المراكشي، مصدر سابق، ص:196.

119- ابن الصغير، مصدر سابق، ص:81.

120- نفسه، ص: 32، 80.

121- نفسه، ص:69.

122- إحسان عباس، مرجع سابق، ص: 129.

123- أبو عبيد البكري، مصدر سابق، مصدر سابق، ص: 68، انظر أيضا: الحميري، مصدر سابق، ص: 126.

124- Chikh bekri, op cit, p : 114.

125- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 54.

126- جودت عبد الكريم يوسف، مرجع سابق، ص:33، 36.

127- المقديمي، مصدر سابق، ص:29.

128- أبو عبيد البكري، مصدر سابق ص: 68.

129- Chikh bekri,op cit ,p: 114.

130- ibid , p: 114.

131- ابن الصغير، مصدر سابق، ص:85.

132- عثمان الكعاك، مرجع سابق، ص: 126.

133- ابن الصغير، مصدر سابق ص:51.

134- أحمد توفيق المدني، مدخل لدراسة الدولة الرستمية وإسهامها في التطور الفكري والحضاري، محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، ورجلان 17-26 صفر 1397هـ- 06-15 فبراير1977م، المجلد الرابع، منشورات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1984م، ص: 293.

135- ابن الصغير، مصدر سابق، ص:35.

136- نفسه، ص:35.

137- ابراهيم بكير بحاز، مرجع سابق، ص:35.

138- ابن الصغير، مصدر سابق، ص:79، 80.

139- نفسه، ص:73.

140- قصبة البلد في اللغة العربية مدينته، والقصبة جوف الحصن يبنى فيه بناء في أسطه، وقصبة البلاد مدينتها، والقصبة أيضا القرية، وقصبة القرية وسطها، أنظر: ابن منظور، مصدر سابق، ص: 3641.

141- أبو عبيد البكري، مصدر سابق ص: 66، مؤلف مجهول، مصدر سابق، ص: 178.

142- موسى لقبال، من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى، مكتبة المعصومة بتاهرت، هل أحرقت؟ أو نقلت عيونها إلى سدراتة في جوار بني وارجلان، مجلة الأصالة، العدد 41، دار البعث، قسنطينة، 1397هـ-1977م، ص: 58، 59.

143- محمد عليلي، تاهرت مديمة التعايش المذهبي في العهد الرستمي خلال القرنين 2 و3، الخلدونية، مجلة العلوم الانسانية والعلوم الإجتماعية، لجامعة ابن خلدون تيارت، عدد خاص، 2009، ص: 89.

144- سليمان داود بن يوسف، مرجع سابق، ص: 89.

145- أبو زكرياء، مصدر سابق، ص: 170.

146- سليمان داود بن يوسف، مرجع سابق، ص: 90.

147- موسى لقبال، مرجع سابق، ص: 54، 58، 59.

148- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 29.

149- محمد عليلي، مرجع سابق، ص: 89.

150- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 32.

151- نفسه، ص: 53، 54، 65.

152- ابن الصغير، مصدر سابق، ص: 67.